محمد صديق المنشاوى..

سفـــير السمـــاء

بســاط أخضر.. يحلــق بجناحى الخشــوع والشــجن.. يحنو على الأرواح.. محتضنــا إياهــا.. يطير بها.. يخترق الأجرام والســماوات.. يهبط قاب قوســين أو أدنى من عرش الرحمن.. فتخشع الأرواح ما شاء لها أن تخشــع.. ويروى ظمأ النفوس والخلايا.. وتفيض القلوب رحمة ونشــوة.. هكذا هو صوت القارئ الخاشع محمد صديق المنشاوى.. الذى يرتــل ويرتقى «رتل وارتق».. فيرقى الســامعون أيضــا.. فذلك الصوت الشــجى.. ينفذ من الأسماع إلى الخلايا.. ليضع عليها «خاتم الخشوع» فتشف وتتسامى وتحلق فى فضاءات التقوى والإيمان.. وذلك ليس غريبا على ذلك الصوت الذى يتلألأ فى ظلمات نفوسنا.. وكأنه «قبس من نور الرحمن».. وقد جاء محمد صديق المنشــاوى ليجــد أن «قدره» القرآن.. حيــث ينتمى إلى «بيت قرآنى».. فالجد الســيد المنشــاوى كان حافظا للقــرآن.. ويمتلك مكتبة قرآنية ضخمــة.. بها أربعة مصاحف مخطوطة بخط اليد.. والأب صديق السيد المنشاوى واحد من أكبر علامات التلاوة والإنشــاد.. ولكنه رفــض كل إغــراءات وإغواءات «نداهة الشــهرة».. لكى يترك الصعيد الذى ولد وعاش واشــتهر فيــه.. ويذهب إلى القاهرة المحروســة حيث الشهرة والثروة أيضا.. فقد اكتفى الرجل بدفء الأهل والأصحاب فى المنشــأة التابعة لمركز جرجا فى محافظة ســوهاج.. وإذا كان الأب قد رفض إغراءات الشهرة.. فإن العم أحمد السيد المنشاوى قد جاءته الشهرة من أوسع الأبواب بعد أن ذاع صيته فى كل مصر.. ولكنه وضع أمامها شروطا تعجيزية.. حيث عرض عليه أن يصبح مقرئ الملك فى القصر الملكى.. وبالطبع ســيكون الصوت الأولى بالرعاية فى الإذاعة

المصرية.. ولكن الرجل اشترط على رسول الملك أن يتم تعطيل كل مقاهى مصر عند إذاعة الفقرة القرآنية الرئيسية كل يوم «من الثامنة حتى الثامنة والنصف مساءً».. وبالطبع كان هذا الشرط صعبا بل مستحيلا..

فى هذا البيت القرآنى ولد الطفل محمد صديق المنشاوى فى العشرين من يناير ١٩٢٠م.. وفى سنوات طفولته الأولى دفع به والده إلى الشيخ محمد النمكى أشهر محفظى القرآن فى المنشأة.. فأتم حفظ القرآن وهو فى الحادية عشرة من عمره.. وعلى الفور أرسله والده إلى عمه فى القاهرة ليدرس علوم التلاوة وفنون التجويد والقراءات على يد الشيخيين محمد أبو العلا و محمد سعودى.. وقبل أن يتم الفتى سن الخامسة عشرة كان قد تمكن من كل فنون التلاوة والتجويد.. وانطلق بعدها يحيى المناسبات الدينية والعزاء فى كل مديريات الصعيد.. لتنفجر شهرته بأسرع من البرق.. وذلك لطريقته الجديدة فى التلاوة والتى تجمع ما بين حلاوة الأداء.. وخشوع الصوت.. والشجن الذى يصل بهذا الصوت مباشرة إلى قلوب سامعيه.. وسار محمد صديق المنشاوى على درب والده.. مرتضيا التحرك فى «شرنقة الصعيد».. وكأنها «صومعة زاهد» أو «خلوة عابد».. ولم يكسر هذه القيود الذاتية إلا مرة واحدة عندما رحل الشيخ محمد رفعت.. فذهب محمد صديق المنشاوى لينضم إلى كوكبة القراء الذين أحيوا ليلة العزاء فى شيخهم الكبير.. وكان ذلك فى عام ١٩٥٠م.. واستمر المنشاوى الصغير يجوب مدن الصعيد وقراه حتى أصبح أشهر من «النار على العلم» وكأنه قد «استنسخ» سيرة والده الشيخ صديق المنشاوى بعدم الذهاب إلى القاهرة.. فسعت القاهرة إليه بعد أن تغيرت مصر

كلهـا بقيام ثورة يوليو ١٩٥٢م بقيادة جمـال عبد الناصر.. ذلك الزعيم الشـاب الذى راح يبحث عن المواهب والكفاءات فى كل المجالات وفى كل ربـوع مصر.. وبعد عام من الثورة جـاء رمضان فى صيف ١٩٥٣م، وكان الشـيخ محمد صديق المنشاوى يحيى لياليه فى مدينة إسنا أقصى جنوب محافظـة قنا، عند عائلة حزين، وفجأة هبطت الإذاعة المصرية إلى حيث يوجد الرجل.. وسـجلت له بعـض قراءاته المتفردة.. وعندما استمع الناس إلى ذلك الصوت الجديد عبر أثير الإذاعة.. أمسكت النشوة بكل خلاياهم.. ولفهم الخشوع.. وتسرب الشجن فى الوجدان.. وتأكدوا بأنهم أمام «زعيم جديد» لدولة التلاوة.. وأمام هذا الإعجاب الجارف من المسـتمعين أرسل محمد أمين حماد مدير الإذاعة المصرية فى طلب ذلك «الشـيخ الظاهرة» وطلب منه أن يحضر اختبار اعتماد القراء الجدد أمام لجنة الإذاعة.. وكانت لجنة من العمالقة ففيها الشيخ محمود شلتوت، الدكتـور محمد عبد الله دراز والشـيخ عبد الفتـاح القاضى «مدير معهد القراءات بالأزهر» – الشيخ على الضباع «شيخ المقارئ المصرية» – الشاعر محمود حسـن إسماعيل «مدير البرامج الثقافية بالإذاعة» – محمد حسن الشجاعى «مستشـار الموسيقى والغناء بالإذاعة» – محمد محمود شعبان «مراقب التنفيذ بالإذاعة»..

وجلـس أمام لجنـة العمالقة مائة وعشـرون قارئا وذلك فى موسـم «١٩٥٣م – ١٩٥٤م» لتجيـز من بينهم مجموعة صاروا من أشـهر القراء بعـد ذلك وهم – محمد صديق المنشـاوى – محمـود خليل الحصرى – محمود على البنا – منصور الشـامى الدمنهورى – عبد الرحمن الدروى

– محمود عبد الحكم».. وتفرد الشيخ المنشاوى وحده بأن جعلته اللجنة ضمن قراء الفئة المتازة الذين يقدمون قرآن السهرة وهم مصطفى إسماعيل – طه الفشني – كامل يوسف البهتيمى – عبد الفتاح الشعشاعى – إلخ.. أما بقية زملاءه فقد انضموا إلى قراء الفئة الأولى الذين يقدموا قراءة الصباح.. وجاء مساء الأحد ١٣ يونيو ١٩٥٤م.. ليطل الصوت الخاشع للشيخ محمد صديق المنشاوى لأول مرة وبشكل رسمى عبر أثير الإذاعة المصرية.. وكانت التلاوة من قصار السور.. ثم جاءت التلاوة الثانية مساء الأربعاء ٣٠ يونيه ١٩٥٤م.. ليرتبط الشيخ بعد ذلك بيوم الأربعاء من كل أسبوع وليطلق عليه بعض المستمعين لقب «صديق الأربعاء».

ويؤكد علماء الموسيقى على أن صوت الشيخ محمد صديق المنشاوى هو «النموذج الأمثل» للصوت الكتمل.. حيث يتسم بالقوة والعذوبة والإحساس فى مناطق الصوت الثلاث «القرار –الوسط – الجواب».. وينتمى صوت المنشاوى إلى نوع «التينور».. وبرغم قوة وعذوبة الصوت.. إلا أن صاحب الصوت قد ابتكر لنفسه نوعا من «التكنيك الخاص جدا» أثناء التجويد.. وخاصة فى الحفلات أمام الجمهور.. حيث يعمد الشيخ المنشاوى إلى ارتقاء سلم المقام الذى يقرأ منه درجة درجة.. أى يبدأ من درجة صوتية منخفضة ثم يرتقى سلم المقام حتى يصل إلى الدرجة السابعة أى أعلى المقام.. وبعدها يواصل القراءة من هذه الدرجة العالية.. مما يمثل جهدا خارقا على أحباله الصوتية.. كما يمثل ضغطا كبيرا على حجابه الحاجز.. ولا يكتفى الشيخ بمجرد الأداء من هذه المنطقة العالية.. ولكنه يضيف بصوته العبقرى الكثير

والكثير من الحليات والزخارف من خلال أدائه المبهر.. وقد وصل الشيخ المنشاوى إلى درجة «الإتقان الكامل».. وذلك من خلال المزاوجة مابين موهبته الفطرية الخارقة.. وقدراته الكبيرة على الدرس والاكتساب.. فصار من أعلم الناس بأحكام التلاوة – وأسرار القرآن.. إضافة إلى مخارج الألفاظ والحروف الصحيحة تماما.. ومن السهل على أى مستمع للشيخ المنشاوى أن يكتشف أن الرجل يتذوق الحروف ويستمز بها قبل أن يلقيها إلى مسامع وأفئدة سامعيه.. وللشيخ المنشاوى العديد والعديد من القراءات النادرة التى يظهر من خلالها قدراته وملكاته اللا محدودة.. ومن هذه القراءات سور «يوسف – العلق – التوبة – القارعة – الشعراء – الطارق – الفجر – النساء – الإنفطار – الرحمن ..إلخ».

ومن الملكات المبدعة لدى الشيخ المنشاوى قدرته على تجسيد المعانى فى الآيات التى يقرأها.. وهذا لا يتأتى لأى قارئ إلا إذا كان متبحرا ودارسا فى علوم القرآن.. وفاهما للمعانى حتى يتمكن من تجسيدها ونقلها إلى مستمعيه.. وقد برع المنشاوى فى أداء كل المقامات الموسيقية.. وإذا ما عرفنا أنه لم يتلق أى تعليم موسيقى وأن هذه القدرات الفذة تنبع من موهبته الفطرية لأدركنا مدى عبقرية وندرة هذا الصوت الخاشع.. ومن الطرائف فى حياة الشيخ أن أحد كبار الموسيقيين قد عرض عليه تلحين القرآن ليؤديه بصوته.. لأنه الصوت الوحيد القادر على ذلك.. فكان رده المفحم أن الموسيقى قد أخذت من القرآن فكيف نضع الموسيقى على الأصل الذى خرجت منه؟

انطلقت شهرة الشيخ محمد صديق المشناوى من مصر إلى كل العالم الإسلامى.. فانهالت عليه الدعوات ليزور العديد من الدول ومنها

«السعودية – سوريا – الكويت – ليبيا – العراق – الأردن – الجزائر – باكستان – أندونيسيا – فلسطين – إلخ».. وله فى هذه الدول العديد من القراءات النادرة.. التى ستعيش إلى أبد الدهر نبعا صافيا للإيمان والخشوع.. ينهل منه الخاشعون الطامحون إلى جنة الخلد.

لم يكن الشيخ المنشاوى مجرد صوت عبقرى.. أو معجزة فنية فى عالم التلاوة.. ولكنه حرص على أن يعيش القرآن.. وأن يتعايش معه حتى انطبعت على خلاياه «أخلاق القرآن».. فصار رقيقا عذبا متواضعا يعطف على الفقراء والمساكين والغلابة.. ويصل رحمه.. فيبنى مسجدا باسم والده فى القاهرة.. ويبنى مسجدا أخر فى المنشاة بسوهاج.. وبرغم هذا لم يسلم الشيخ من غيرة ومؤمرات الآخرين.. تلك الغيرة المدمرة التى وصلت إلى حد التفكير فى القتل.. وقد روى الشيخ المنشاوى لوالده وأولاده أن أحد المقرئين «لم يذكر اسمه».. دفع طباخ إحدى الأسر العريقة التى كان معتادا أن يقرأ فى حفلاتهم أن يدس له السم فى الطعام.. ولكن هذا الطباخ استيقظ ضميره فأخبر الشيخ لينجو من موت محقق.. كما اتفق مقرئ أخر مع عامل «الميكروفون» فى إحدى الليالى أن يدعى وجود عطل مفاجئ بعد أن أشاع هذا المقرئ بأن الشيخ المنشاوى لايستطيع القراءة بغير الميكرفون.. فما كان من الشيخ المنشاوى إلا أن قال «بسم الله الرحمن الرحيم» ثم راح يقرأ وهو يسير على قدميه بين جموع الحاضرين فأخذ بالبابهم وقلوبهم.. وسحرهم وبهرهم.. فتعالت صحيات الإعجاب والانبهار.. فانسحب المقرئ الآخر الذى أكلته الغيرة المدمرة.. وكان الشيخ المنشاوى يرى مثل هذه الأفعال جزءً صغيرا من «ضريبة

الشهرة».. تلك الضريبة التى زادت حتى أثقلت ظهر الشيخ، وذلك بعد أن هاجمه «المرض اللعين» الذى يأكل أكباد الفلاحين البسطاء.. فأصيب بدوالى المرئ بداية من عام ١٩٦٦م.. ونصحه الأطباء بالراحة وعدم القراءة بصوت جهورى.. ولكن الرجل لم يكن يرى فى نفسه إلا مجرد «خادم القرآن».. فواصل قراءاته حتى تمكن منه المرض ليرحل بعد إجرائه عملية صغيرة لاستئصال «اللوز» وذلك فى العشرين من يونيه عام ١٩٦٩م – وكان يوم السبت، حيث فوجئ مستمعو الإذاعة بصوت الشيخ المنشاوى يطل عليهم فى قرآن السهرة.. فظنوا أن مسئولى الإذاعة قد أخطأوا لأن يوم السبت مخصص للشيخ عبد الباسط عبد الصمد – بينما الشيخ المنشاوى مخصص له يوم الأربعاء.. وبعد انتهاء التلاوة كشف المذيع عن سر هذا التغيير بإعلانه رحيل المنشاوى.. والذى رحل وهو فى التاسعة والأربعين من العمر.. بعد أن حقق إنجازا عظيما بتسجيله أول «خاتمة مرتلة» للقرآن الكريم.. وهى واحدة من «الختمات الخمس المعتمدة» والتى تذاع فى إذاعة القرآن الكريم وكل إذاعات العالم الإسلامى بأصوات كبار القراء «محمد صديق المنشاوى – محمود خليل الحصرى – مصطفى إسماعيل – عبد الباسط عبد الصمد – محمود على البنا»..

كما استطاعت مؤسسة خالد غانم فى جده بالمملكة العربية السعودية أن تجمع القرآن مجودا بصوت الشيخ المنشاوى فى جهد مشكور كان الأولى أن يصدر عن مصر.

وبرغم مرور الشيخ المنشاوى مثل «الشهاب» إلا أن إنجازه «القرآنى» عظيم.. ويصعب على كثير من المقرئين أن يحققوا مثله.. ولكن الشئ

المؤلم أن الشيخ محمد صديق المنشاوى بكل هذا الإنجاز العظيم.. لم يحصل على التكريم الذى يوازى هذا الإنجاز.. حيث لم يحصل إلا على وسام الإستحقاق من الدرجة الثانية من سوريا وكان معه الشيخان عبد الفتاح الشعشاعى.. وأبو العنيين شعيشع.. كما حصل على وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى من الرئيس الأندونيسى أحمد سوكارنو.. وكان معه الشيخ عبد الباسط عبد الصمد..

وفى مصر عندما علم الرئيس عبد الناصر بمرضه أصدر قرارا بعلاجه على نفقة الدولة خارج مصر، ولكن الموت كان أسرع من تنفيذ القرار.. ولأن الشيخ قد رحل ومصر تخوض واحدة من أصعب معاركها وهى حرب الاستنزاف بعد هزيمة يونيه – فلم يحصل على ما يستحقه من تقدير – فقد تأخر هذا التقدير ثلاثة وعشرين عاما – عندما منحه الرئيس الأسبق حسنى مبارك وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى فى الاحتفال بليلة القدر عام ١٩٩٢.

ويبقى أن التقدير الأكبر لهذا الصوت العبقرى يكمن فى تلك «النغمة الربانية» التى جعلت من صوته سفيرا دائما للسماء.. ينقل رسائل الملكوت الأعلى إلى كل المتقين والعصاة والمؤمنين فتخشع قلوبهم وتبتهل خلاياهم.. فينطلقون إلى أعلى عليين مع الملائكة والشهداء والصديقين.

□□□